التماثيل المرصَّعة باليواقيت، فسلَّمتُ عليه، وجلست بين يديه[١]، فلما أديتُ الرسالةَ قال للخادم: دُرْ به في القصر. فطاف بي، فرأيتُ ما هالني، ومن جملة ما رأيتُ خَرْكاة عظيمة قد أُلبست صفائح الذهب، وفيها من تماثيل اليواقيت والجواهر مالا أقدر أن أصِفَه، وفي وسطها سرير من العود القُماري، وحوله تماثيل طيور من الذهب بخرْكاةٍ، إذا جلس الملكُ على السرير صفَّقت بأجنحتها، إلى غير ذلك من العجائب، فلمَّا عدتُ إليه أوردتُ له أحاديث، منها قولُه ﷺ: «لمَناديلُ سعد بن معاذ في الجنة أحسَنُ من هذا» فبكى[٢].

وما كان يبني لنفسه مكاناً حتى يبني لله مسجداً أو مدرسة.

وكانت وفاته في رجب، وقد جاوز السبعين، وأقام والياً نيِّفاً وأربعين سنة.

عبد الباقي بن يوسف[٣]

ابن علي بن صالح، أبو تراب، المَراغي، الفقيه، الشافعي، ولد سنة إحدى وأربع مئة، ونزل نيسابور ودرَّس بها، وكان يقول: أحفظ أربعة آلاف مسألة في اختلاف الفقهاء والكلام عليها، وأُناظر في جميعها.

وكان يحفظ الحكايات والنوادر، قانعاً من الدنيا باليسير على طريقه السلف، بعث إليه السلطان منشوراً بقضاء هَمَذان، فردَّه وقال: أنا في انتظار المنشور الأكبر من الله تعالى بلقائه، وقدومي عليه، وقعودي ساعةً في هذا المسجد على فراغ القلب أحبُّ إليَّ من ملك الثقلين.

وكانت وفاته في ذي القعدة عن ثلاث وتسعين سنة، وكان إماماً زاهداً ورعاً عابداً.

السنة الثالثة والتسعون وأربع مئة

فيها في يوم السبت سادس عشر صفر خرج الوزيرُ عميدُ الدولة لاستقبال بركياروق إلى صَرْصَر في الموكب، وعاد من يومه، ودخل بركياروق يوم الأحد إلى دار المملكة، وبعث إليه الخليفة خيلاً وسلاحاً وهدايا.

---

(١) في (خ): فجلست عليه، والمثبت من (ب).

(٢) الحديث أخرجه البخاري (٣٨٠٢) ومسلم (٢٤٦٨) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه

(٣) المنتظم ١٧/ ٥٠ ـ ٥١ ، والأنساب ١١/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥ . وتنظر بقية المصادر في السير ١٩/ ١٧٠ .

وسبب دخوله بغداد أن أخاه محمد شاه كان قد ظهر عليه وخطب لمحمد ببغداد، وطرد بركياروق من هَمَذان، فقصد خوزستان والأهواز هارباً من محمد، ثم قدم واسطاً، فهرب أعيانُ البلد، فدخل العسكرُ البلد، وفعلوا مثل ما فعل الفرنج بالمسلمين، وصادروا الناس، وأخربوا سقوف الدور، وأوقدوا أخشابها، وسبوا الحريم، ثم قصدوا بلاد سيف الدولة صدقة ففعلوا بها مثلَ ما فعل بواسط، ثم قصد بغداد، وكان سعد الدولة الكوهراني مخيماً بالنَّجمي[1] مبايناً لبركياروق، مصافياً لمحمد شاه، فرحل عن بغداد في صفر، وأخذ معه زوجة مؤيد الملك بن نظام الملك، وهي ابنة أبي القاسم بن رضوان فلما كان يوم الجمعة منتصف صفر قُطعت خطبة محمد شاه، وأُقيمت لبركياروق، واستولى محمد شاه على أصفهان والممالك، ومال الجندُ إليه.

وفي ربيع الأول استوزر بركياروق العميد أبا المحاسن عبد الجليل الدَّهسْتاني ولُقِّب بنظام الدين، وجلس للنظر في دار المملكة، فبعث له الخليفة خِلعاً مع عميد الدولة، فحبس[2] بركياروق عميدَ الدولة، واستدعى القاضي أبا الحسن[3] الدامَغاني، وأبا القاسم الزينبي وأبا منصور صاحب الباب، وقال لهم أبو المحاسن: السلطان يقول لكم: قد عرفتُم ما نحن فيه من الإضاقة ومطالبة العسكر لنا بالمال، وهذا الوزير ابنُ جَهير قد تصرَّف هو وأبوه في ديار بكر وخلاط والجزيرة والموصل في أيام جلال الدولة، وجبوا أموالها، وأخذوا ارتفاعها، وينبغي أن يُعاد كلُّ حقٍّ إلى مستحقِّه، فخرجوا إلى الوزير وأعلموه، فقال: أنا مملوك، ولا أقدر على الكلام إلا بإذن مولاي. وانصرف القوم، وأقام الوزير معتقلاً، فكتب الخليفة إلى السلطان كتاباً يتهدَّده ويقول فيه: لايغُرَّكَ إمساكُنا من مقابلة الفلتات، فوَحَقِّ مَنْ سلف من آبائنا [لئن لم[4]] يعُدِ الوزير شاكراً لنفعلنَّ ولنفعلنَّ.

(١) هكذا في الأصلين(خ) و(ب): بالنجمي، وفي الكامل ١٠/ ٢٩٣ ، والمنتظم ١٧/ ٥٣ : بالشفيعي.

(٢) في (خ): فجلس، والمثبت من (ب)، والمصادر.

(٣) تحرفت في (خ) إلى: المحاسن، والتصويب من (ب) والمصادر.

(٤) ما بين حاصرتين من (ب)، ونحوه في المنتظم.

فلمَّا قُرئ الكتاب على السلطانُ أحضر عميدَ الدولة، واعتذر إليه الوزيرُ أبو المحاسن، وقال: السلطان يقول: ثقَّلنا عليك كما يُثقِّل الولدُ على والده. وأطلقه وبين يديه الحُجَّاب، واستقرَّ أن يحمل مئة ألف دينار وخمسين[١] ألف دينار، فحملها.

وفي رابع جمادى الآخرة[٢] خرج بركياروق من بغداد، وجاءه محمد شاه في رجب إلى هَمَذان، والتقيا، فانهزم بركياروق في خمسين فارساً، فنزل على فراسخ من مكان المصاف فاستراح، والتأم إليه أصحابُه، ثم لقي أخاه محمداً، فانهزم محمد وأُسِرَ سنجر وأمُّه وهي أم محمد، فأحسن بركياروق إليهما، وبعث بهما إلى أخيه محمد، وبعث محمد مَنْ كان عنده من الأسارى من أصحاب بركياروق.

وفي رجب سار دُقاق من دمشق على الرحبة إلى ميَّافارقين، فتسلَّمها، ورتب فيها نوَّابه.

وفي رجب خرج بيمُنْد زعيم الروم صاحب أنطاكية، فعاث في أرض حلب، وبلغه أنَّ الدانشمَنْد وصل إلى ملطية في جيش كثيف من الأتراك وعسكر سليمان بن قُتُلْمِش، فعاد بيمُنْد إلى أنطاكية وجمع وحشد، وعاد والتقاه المسلمون فأسروه، وقتلوا من أصحابه مقتلةً عظيمة.

وفي رمضان قبض الخليفةُ على عميد الدولة ابن جَهير وإخوته؛ زعيم الرؤساء أبي القاسم، وأبي البركات الملقَّب بالكافي، وجلسوا في دار الخلافَة، واستوزر أبا المحاسن عبد الجليل بن محمد الدَّهستاني وزير بركياروق، ولقَّبه جلال الدولة، إلا أنه لم يتمَّ أمرُه، لأنه استوزر في شوال، وورد كتاب بركياروق يحثُّه على اللحاق به، فسار إليه، فاستوزر الخليفةُ سديدَ الملك أبا المعالي الفضل بن عبد الرزاق الأصفهاني، وكان كاتباً في ديوان الجيش لملك شاه[٣].

وفي ذي الحجَّة قتل رجلٌ أميراً في الري في دار فخر الملك بن نظام الملك ـ وقيل: إن الرجل باطني ـ فأُحضرَ إلى بين يدي فخر الملك، فقال: ويحك قتلتَ هذا الأمير في

(١) في المنتظم: وستين.

(٢) في المنتظم: رابع رجب. قلت: وهذا الخبر والأخبار السابقة في المنتظم ١٧/ ٥٢ ـ ٥٣.

(٣) تحرفت في (خ) إلى: الروم، والتصويب من (ب) والمنتظم.

داري، وهتكتَ حُرمتي، وأذهبتَ حشمتي. فقال له الباطني: وهل لكَ حُرمةٌ مهتوكة، أو دارٌ مملوكة، أو حشمةٌ تمنع من الدماء المسفوكة؟ أو ما علِمتَ أننا ستةُ نفر بُعِثنا إلى ستة لنقتلهم أحدُهم أخوك؟ قال: وهل أنا في جملتهم؟ قال: أنت أقلُّ من أن تُذكرَ أو نلوِّثَ سكاكينَنا بدمك. فعُذِّبَ على أن يُقِرَّ على من أمر بقَتْلِه، فلم يُقِرَّ، فقتله[١].

وفيها خرج سعد الدولة القوامسي من مصر بعسكر كثيف، فالتقى الفرنجَ على عسقلان، وكان في القلب[٢]، فقاتل قتالاً شديداً، فكبا به فرسُه فقُتِلَ، وثبت المسلمون، وحملوا على الفرنج فهزمهم إلى قيسارية، فيقال: إنهم قتلوا من الفرنج ثلاثَ مئة ألفٍ ولم يُقتَل من المسلمين سوى سعد الدولة ونفرٍ يسير.

وفيها توفِّي

سعد الدولة الكوهراني[٣]

من الخدم الأتراك الذين ملكهم أبو كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة، وكان قبل انتقاله إليه لامرأة، فكان بعد إقبال الدنيا عليه ومسير الجيوش تحتَ ركابه يقصد مولاته ويخدمها ويستعرض حوائجها، وبعث به أبو كاليجار مع ابنه أبي نصر إلى بغداد، فلم يزَلْ معه حتى قدم طُغْرُلبك بغداد واعتقل أبا نصر في القلعة، فلم يُفارِقْهُ سعد الدولة، فلما مات خدم سعدُ الدولة ألب أرسلان ووقاه بنفسه لمَّا جرحه يوسف ـ وقد ذكرناه ـ فلمَّا مَلَكَ مَلِك شاه بعثَ سعد الدولة إلى بغداد في رسالة، فجلس له القائم في صفر سنة سبع وستين، وأعطاه الخِلَعَ والعهد لملك شاه، وأقطعه ملك شاه واسطاً، وكان قد ولَّاه شحنة بغداد، ورأى مالم يرَه خادمٌ من المال والجاه ونفوذ الأمر وطاعة العساكر، ولم يُنقَل أنه مرض ولا صدع، ونال مُرادَهُ من كلِّ عدوٍّ له، وذكر أنه لم يجلس قطُّ إلا على وضوء، وكان يتوضأ ولا يستعين بأحد، ويصوم، ويقوم الليل، ويتصدَّق، ولم يصادِرْ أحداً، ولا ظلم أحداً، وكان يوم

(١) هذا الخبر والذي قبله في المنتظم ١٧/ ٥٤ ـ ٥٥.

(٢) يعني في القلب على بركياروق ومن معه، ينظر الكامل ١٠/ ٢٩٥.

(٣) ينظر المنتظم ١٧/ ٥٦ ـ ٥٧.

المصافّ بين محمد وبركياروق مع بركياروق، فكبا به فرسُه وعليه سلاحه فلم يعرفوه، فقُتِلَ، وحُمِلَ إلى بغداد فدُفِنَ في الجانب الشرقي مُقابل رباط أبي النجيب، وكان يعمل برأيه في قتل ما لايجوز قتلُه من اللصوص ويُمَثِّل بهم، ويزعم أن ذلك سياسة.

عبد الله بن أحمد[١]

ابن علي بن صابر، أبو القاسم، السُّلَمي، الدمشقي، ويُعرف بابن سِيدَه، وُلِدَ سنة اثنتين وخمسين وأربع مئة، وكانت وفاتُه في ربيع الآخر بدمشق، وأنشد: [من الكامل]

صبراً لِحُكْمِكَ أيُّها الدَّهرُ ... لكَ أن تجورَ ومنِّيَ الصبرُ
آليتُ لا أشكوكَ مجتهداً ... حتى يَرُدَّكَ مَنْ لهُ الأمرُ

عبد الرزاق

الصوفي، العربوني[٢].

كان مقيماً برباط عتاب غربي بغداد، وهو معروف بسُكنى المجردين، حجَّ سنين كثيرة على التجريد وقارب مئة سنة، ولمَّا احتُضِرَ لم يُخلِّف من الدنيا شيئاً، فقالت له زوجته: وافضيحتُكَ [قال: ولِمَ؟ قالت: مالكَ كفن. فقال لها: وافضيحتي][٣] لو كان لي كفن. وتوفِّي رحمه الله واتَّفق أنه مات في هذا الوقت أبو الحسن البسطامي شيخ رباط ابن المحلبان، وكان لا يَلْبَس إلا الصوف، ويغلظ على نفسه، ويُظهر التجريد والفقر، فظهر عنه أن له عشرة آلاف دينار مدفونة، فتعجَّب الناس من تفاوت ما بين الرجلين، وكلاهما شيخا رباطين.

عبد الواحد بن رزق الله بن عبد الوهاب[٤]

أبو القاسم، التميمي، الحنبلي، قدم رسولاً إلى دمشق من المستظهر سنة تسعين بِخِلَعٍ إلى دُقاق، وعاد إلى بغداد فتُوفِّي بها، وكان ثقةً صدوقاً.

---

(١) تاريخ دمشق٢٧/ ٣٩-٤٠.

(٢) المنتظم ١٧/ ٥٧.

(٣) ما بين حاصرتين من (ب)، وهو بنحوه في المنتظم، والكامل ١٠/ ٣٠٢.

(٤) تاريخ دمشق ٤٣/ ٣٣٤ (طبعة مجمع اللغة).

محمد بن سلطان[1]

ابن محمد بن حيُّوس، أبو الفتيان، الأمير، الشاعر، ولد سنة إحدى وأربع مئة، وقال الشعر وله خمسة عشرة سنة، وهو من أهل بيت الفضل والعلم، وتُوفِّي في رجب وقد جاوز تسعين سنة، ومن شعره قال يمدح ناصر الدولة بن حمدان في أبيات: [من الطويل]

لكم أن تجوروا مُغضَبين[2] وتغضبوا ... وعادتكُم أن تزهدوا حينَ تغضبوا
جنيتُمْ علينا واعتَذْرنا إليكمُ ... ولولا الهوى لم يسألِ الصفحَ مُذْنِبُ
صبابةُ شوقٍ غادرتْهُ صبابةٌ ... إذا ذلَّ فيها طالبٌ عزَّ مطلَبُ
مواصَلَةٌ كانَتْ كأحلامِ نائمٍ ... وإن لامَ فيها عاذِلٌ ومؤنِّبُ
وقد رُمْتُ أن ألقى الصُّدودَ بمثلِهِ ... مقابلةً لكنَّني أتهيَّبُ
وداويَّةٍ بِكْرٍ جعَلْتُ نِكاحَها ... سُرى ضُمَّرٍ فارقنَها وَهْيَ ثَيِّبُ
تضِلُّ فلو بعضُ النُّجومِ سرى بها ... ورامَ نجاةً ما درى كيف يذهَبُ
دليلانِ فيها حُسْنُ ظنِّي وبارقٌ ... يُبشِّرُ بالتَّهطالِ والعامُ مُجْدِبُ
ومُذْ أَرَياني ناصرَ الدولةِ انْجلى ... برُؤياه ما أخشى وما أترقَّبُ
فجاورتُ مَلْكاً تَستَهِلُّ يمينُهُ ... ندًى حينَ يرضى أو ردًى حين يغضَبُ
إذا البيضُ كلَّتْ يوم حربٍ فإنَّها ... مواضٍ قواضٍ أنَّ تغلِبَ تغلِبُ
خلائقُ كالماءِ الزُّلالِ وتحتَها ... من العزمِ والإقدامِ نارٌ تلهَّبُ
فإن طابتِ الأوطانُ لي أو ذكرتُها ... فإنَّ مُقامي في جنابِكَ أطيَبُ

وقال: [من الخفيف]

كُنْ بعيداً إن شئتَ أو كُنْ قريباً ... فأياديكَ عندنا لَنْ تغيبا

---

(١) تاريخ دمشق ٥٣/ ١١٠ ـ ١١٤ وفيه أن وفاته كانت سنة (٤٧٣هـ) وإليه ذهب أكثر المؤرخين، فهو كذلك في العبر ٣/ ٢١٨، والسير١٨/ ٤١٣، وشذرات الذهب ٣/ ٣٤٣، وكشف الظنون ١/ ٧٦٥ وغيرها، بينما ذكره ابن الأثير في الكامل ١٠/ ١١٧ في وفيات سنة (٤٧٢هـ). قلت: ولم يذكره في وفيات هذه السنة ـ يعني سنة (٤٩٣هـ) ـ سوى المصنف، وتابعه عليه ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٥/ ١٦٥. وتنظر مصادر الترجمة في السير ١٨/ ٤١٣.

(٢) في الديوان والنجوم الزاهرة: معرضين.

خلفَكَ الآلاءُ مُذْ غِبْتَ عنَّا ... فتساوَيْتَ مشهداً ومَغيبا
كالغَمامِ الرُّكامِ يمضي و يُبقي ... مورداً فائضاً ومرعًى خَصيبا[1]

وله أشعار كثيرة.

وقال: [من الطويل]

سأشكرُ ما دامَ الكلامُ يُطيعني ... صُنوفاً أتَتْ من جودِكَ المتتابعِ
توالَتْ على من لا يُدِلُّ بخدمةٍ ... عليك ولا يُدلي إليكَ بشافعِ
مَنَحْتُكَ من محضِ القريضِ وحُسْنِهِ ... بضائعَ ليسَ العُرْفُ فيها بِضائعِ

وقال: [من الطويل]

ولمَّا وقفنا والرسائلُ بيننا ... دموعٌ نهاها الوجدُ أن تتوقَّفا
ذَكَرْنا الليالي بالعقيقِ وظِلَّها الـ ... أنيقَ فقطَّعْنا القلوبَ تأسُّفا
كتمتُ الهوى جَهدي وبالصبر مُسْكَةٌ ... وبرَّح ما ألقى فقد برح الخفا
ولي سنةٌ لم أدرِ ما سِنَةُ الكرى ... لِهَمٍّ أتى ضيفاً فألفى مُضيِّفا

وقال: [من الكامل]

هَلْ غيرُ ظِلِّكَ للعُفاةِ مَقيلُ ... أم غيرُ عفوكَ للجُناةِ مُقيلُ
نكَّلتَ بالأَحداث لمَّا أن عَدَتْ ... فلِصِرْفها عمَّا حميتَ نكولُ
يا من قواضبُهُ تُشايعُ عزمَهُ ... ولأجلِ ذاكَ تَصِلُّ حين يصولُ
حرمٌ لإكرام الوفودِ مُؤهَّلٌ ... ففناؤه أبداً بهم مأهولُ
ويروقُه الأسَلُ المُحطَّمُ في العِدى ... يومَ الوغى لا الخدُّ وهو أسيلُ
إنِّي برغم عدايَ ممنوعُ الحِمى ... ما هزَّ هذَا القَيْلَ هذا القيلُ
ذلَّلْتَ لي صعبَ القوافي منعِماً ... فالقولُ جزلٌ والعطاءُ جزيلُ

---

(١) جاء إلى جانبه على هامش(ب):

ومن جيد شعر ابن حيُّوس قوله: [من المتقارب]

ولمَّا وقفنا لتوديعهم ... بكوا لُؤلُؤاً وبكينا عقيقا
ساروا فأودعتهم أدمُعي ... فصاحوا الغريق وصِحْتُ الحريقا

وقد انتحل بعض المتأخرين هذين البيتين لنفسه وهما لابن حيُّوس.

قلت: ولم أقف على من نسبهما إليه.

وقال: [من الكامل]

يـالـلـرجـالِ لـنـظـرةٍ سـفـكَـتْ دمـاً ... ولـحـارثٍ لـم ألـقَـهُ مـسـتـسـلـمـا
وأرى الـسـهـام تـؤمُّ مـن يُـرمـى بـهـا ... فعلامَ سهمُ اللَّحظِ يُصمي من رمى
يـا آمـري بـتـجـلُّـدٍ لـم أُعـطَـهُ ... مـا نـمَّ دمـعـي بـالـجَـوى حـتـى نـمـا
ولـقـد وقـفـتُ بـدارِ زيـنـب مـوهِـنـاً ... والـوجـدُ يـأبـى أن أقـولَ فـأُفـهـمـا
مـسـتـخـبـراً عـنـهـا فـلـم أرَ مَـعْـلَـمـاً ... مـنـهـا بـأخـبـارِ الأحـبَّـةِ مُـعْـلِـمـا
أبكي ويـمـنـعـنـي تـنـاسـي مـا مـضـى ... مـا يـمـنـع الأَطـلالَ أن تـتـكـلَّـمـا

وقال: [من الطويل]

عـداكُـمْ هـوًى مُـذْ شَـفَّـنـا مـا تـعـدَّانـا ... فـهـوَّنـتُـمُ خـطْـباً مـن الـبَـيـنِ مـا هـانـا
وقـلـتـم تـداووا بـالـفِـراقِ فـمـا الـذي ... ألانَ الـنَّـوى مـن بـعـد قـسـوتِـهـا الآنـا

محمد بن صدقة بن دُبَيس[1]

أبو المكارم، عِزُّ الدولة، كان شجاعاً، ذكياً، جواداً، ولمَّا مرض مرض الموت كان أبوه سيف الدولة صدقة جالساً عنده، فأُتي بديوان أبي نصر بن نُباتة، فأخذ محمد الديوان وفتحه فطلع ما صورتُه، وقال: نُعزِّي سيف الدولة في ابنه أبي المكارم محمد، فأخذ بعض الجماعة الديوان من يده، فأخذه وفتحه ثانياً، فخرج ذلك الشعر الذي قاله ابن نُباتة من قصيدة: [من الطويل]

فـإنَّ بـمـيَّـافـارقـيـنَ حـفـيـرةً ... تـرَكْـنـا عـلـيـهـا نـاظِـرَ الـجـودِ دامـيـا
وحـاشـاكَ سيفُ الدولةِ اليومَ أن تُرى ... من الصبرِ خِلْواً أو إلى الحُزنِ ظامـيـا
ولـمَّـا عـدِمـنـا الـصـبـرَ بـعـدَ مـحـمـدٍ ... أتـيـنـا أبـاهُ نـسـتـفـيـدُ الـتَّـعـازيـا

فمات بعد يومين، وجلس الوزيرُ عميدُ الدولة في داره للعزاء ثلاثة أيام، للصهر الذي كان بينهما، وخرج له في اليوم الثالث توقيعُ الخليفة يتضمن التعزية له، والأمر بعوده إلى الديوان، فقرأه قائماً، وبعث الخليفة قاضي القضاة أبا الحسن الدامَغاني إلى حِلَّة سيف الدولة رسالة من الخليفة تتضمّن التعزية له.

(١) المنتظم ١٧/ ٦٠ـ ٦١.

محمد بن محمد[١]

ابن محمد بن جَهير، الوزير، عميد الدولة، شرف الدين، كان حسنَ التدبير، كافياً في المهامّ، شجاعاً، جواداً، حليماً، لم يعجل على أحدٍ بمكروه، وسمع الحديث على الشيوخ، وكان كثير الصدقات، واسعَ المعروف، يجيز العلماء والشعراء، ويحسن إليهم، وخدم ثلاثة خلفاء؛ القائم، ولمَّا احتضر أوصى به المقتدي، ووَزَر للمقتدي سنة اثنتين وسبعين، فبقي فيها خمس سنين، ثم عُزِل بالوزير أبي شجاع، ثم عاد بعد عزل أبي شجاع سنة أربع وثمانين، فلم يزل إلى أن مات المقتدي، وولي المستظهر، فدبر أمور الخلافة ثمانَ سنين وأحد عشر شهراً وأربعة أيام، وكان سيِّدَ الولاة؛ لبرٍّ كان فيه، وكانت كلماتُه معدودة، كلَّم يوماً لولد أبي نصر بن الصباغ فقال: اشتَغِلْ وادأبْ وإلَّا كنتَ صبَّاغاً بغير أب. فلمَّا قام من مجلسه أتى النَّاسُ ابنَ الصباغ فهنَّوه حيث كلَّمه، وله ترسُّلٌ بديع، وتوقيعاتٌ وجيزة، وأشعارٌ رقيقة، وقرأ الفقه وأنواع العلوم، وكانت له سياسةٌ ورياسةٌ وهيبة، وكان ممدَّحاً، فيقال: إنه مُدِحَ بمئة ألف بيت من الشعر.

وقال العماد: مدحهُ عشرةُ آلاف شاعر، ومن مُدَّاحه: مسعود بن العلاء، المعروف بابن الخباز، ومن مدحه فيه: [من البسيط]

وماءُ دجلةَ أو ماءُ الفراتِ على ... العِلَّاتِ أعذبُ لي من ماءِ يَبْرينِ[٢]

كم بين ماءٍ تظلُّ الأُسْدُ شارعةً ... منهُ وتسكنُهُ عيسُ السَّراحينِ[٣]

مستوحشٍ في القِفارِ البيدِ منفردٍ ... لا يعرفُ الأَمنَ إلَّا في الأحايينِ

وبين ماءٍ كماءِ الوردِ مُطَّرِدٌ ... تحتَ القصورِ وروضاتِ البساتينِ

عذبٌ إذا عَبثَتْ أيدي النسيمِ بهِ ... تَنَزَّهَتْ فيه أقمارُ الرواشينِ[٤]

والفُلكُ تقطعهُ عرضاً وتخرِقُهُ ... طولاً وتنقضُّ فيه كالشَّواهينِ

---

(١) المنتظم ١٧/ ٥٩-٦٠. وتنظر بقية المصادر في السير١٩/ ١٧٥.

(٢) يَبْرين: قرية ذات نخل وعيون عذبة بحذاء الأحساء في ديار بني سعد. تاج العروس (برى)

(٣) عيس السَّراحين: الكريم من الذئاب. المعجم الوسيط (عيسى) و(سرح).

(٤) الرواشن؛ جمع روشن: وهو الرفّ والكوّة والشرفة. المعجم الوسيط (رشن)

لا أبتغي الشِّيحَ بالرَّيحان مغتَنماً ولا أحاول حَوْذاناً بنسرينِ[1]
ولا ألَذُّ برؤياهُ ويُعجِبني شَمُّ الخُزامى ولي نشْرُ الرَّياحينِ
ولا أهيمُ بربعٍ غابَ ساكِنُهُ عنهُ وأصبحَ قفْراً غيرَ مسكونِ
حسبي ببغدادَ داراً والحريمِ حِمًى من طارقاتِ صروفِ الدَّهرِ يكلوني
فالعيشُ غضٌّ به والأمنُ متصلٌ بالعدلِ من شَرَفِ الدُّنيا مع الدِّينِ
مُجرَّبُ الرأي يقظانُ البصيرةِ هجَّامُ العزيمةِ قوَّامُ البراهينِ
يُريكَ في الدَّستِ إطراقاً وهيبتُهُ من الصعيدِ إلى أقطار جَيْحونِ
للحمدِ سوقٌ لديهِ غيرُ كاسدةٍ وللمدائحِ أجرٌ غيرُ ممنونِ
فلو رآهُ ابنُ يحيى وابنُ ذي يَزَنٍ لَعوَّذاه بآياتِ الطَّواسينِ

ثم آل أمرُه إلى أن حبسه الخليفة في داره، وأُخرج ميتاً في شوال، فحُمِلَ إلى داره، فغُسِّل فيها، ودُفن بالتربة التي استجدَّها في قراح بن رزين، ومع ما رأى من الأموال والجواهر التي لم يرَها غيرُه مات مديوناً، فمنع أصحابُ الديون من دفنه في تربته، وقالوا: هذه ملكه، ولم يصحَّ وقفُها. ثم عجزوا عن إبطال الوقف، فسكتوا.

وقال أبو يعلى بن القلانسي: في سنة أربع وتسعين تقدَّم المستظهر بالقبض على عميد الدولة وعلى نوَّابه ومصادرتهم وقتلهم لأشياء نقمها عليه، ومنكراتٍ عُزِيَتْ إليه.

يحيى بن عيسى بن جَزْلة[2]

أبو علي، المتطبِّب، صاحب «المنهاج»، كان نصرانياً، يقرأ على أبي علي بن الوليد المعتزلي، فلم يزَلْ يدعوه إلى الإسلام ويذكر له الدلائل الواضحة حتى أسلم، واستخدمه أبو الحسن قاضي القضاة في كَتْبِ السجِلَّات، وكان يَطُبُّ أهل محلَّته ومعارفه بغير أجرة، ويحمل إليهم الأشربة والأدوية بغير عِوَض، ويتفقَّد الفقراء ويُحسِن إليهم، ووقف كتبه قبل وفاته، وجعلها في مشهد أبي حنيفة رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) الحَوْذان: نبت نوره أصفر رائحته طيبه، والنسرين: ضربٌ من الرياحين. اللسان (حوذ) و(نسر).
(٢) المنتظم ١٧/ ٦١، والكامل ١٠/ ٣٠٢.